كلمة الأستاذ الدكتور عادل العوا

ما أمضّ الذكرى السعيدة في حاضر حزين.

وهكذا ذكراك يا أمجد: أيها الرفيق الصديق العزيز.

لقد حبانا الله بالتذكر. والتذكر ملكة إنسانية مبجَّلة، فيها استرجاع الماضي وتمثلُه المتجددُ في النفس، بل هو حضورٌ جديد لواقع غاب. ومنه كذلك ابتكار الحاضر بتأليفه المتكرر، وتركيبه العتيد، ليصبح ما انقطع موصولاً، وما انصرم باقياً، وما فات خالداً أبداً.

على هذا النحو أيها الأعزاء أتحدث إليكم عن ماضٍ حلو يربطني بالراحل الغالي الحبيب الدكتور أمجد، وهو ماضٍ سعيد أحمل عنه كل فخر واعتزاز.

إنني أحدثكم عن ماضٍ سعيد، وفي قلبي أسىً يُضرِمه فقدُه، وأملي أن أحظى بمشاركتكم الإحاطة ببعض ذكريات انتزعتها من صلتي بالدكتور الماجد الأمجد، وسعادتي بذكرها غامرة لولا أن مضمونها قد خلا، وأوبتُها محفوفة بالحوقلة والتجلد الكئيب.

* * *

سمعتم بلا ريب التأكيد الذائع القائل: جارُك أعلم الناس بحالك.

الوقت: الساعة الواحدة والنصف ظهراً بالتوقيت المحلي من عام ١٩٣٩، بفاصلِ أشهر معدودات على اندلاع الحرب العالمية الثانية.

المكان: شارع جوردان، من الحي الرابع عشر من مدينة باريز، حيث المدينة الجامعية بأبنيتها السامقة، وحدائقِها المنبسطة الشيّقة، ومحطة قطارها النظيف، وهدوء جوها المرح.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصورة: شابان وسيمان ناشطان لم ينل من هامتيهما صلع ولا شيب. إنهما يغادران كلاهما غرفته المجاورة لغرفة صاحبه، في الموعد المحدَّد، ويهبطان معاً السلّم من الطابق الرابع المشترك، من مبنى «دار المحافظات»، ويتجهان بخطاً وئيدة شطر «المنزل الدولي»، قاصدين مطعم الطلاب والطالبات، الخاص بالجامعيين والجامعيات، وحيث الغِذاء المقبول، والخدمة الذاتية، والمَقصف الممتع، والثمن الزهيد، والجو المريح.

إنهما يتقدمان بثقة وحبور، لا ريث ولا عجل، يتكلمان ولا يكادان يصغيان، ولكنهما يترنمان ويَطربَان شَجواً مرة جديدة، تلو مرة، بأنغام كوكب الشرق السيدة أم كلثوم: على بلدي المحبوب.. وديني..

هذا طَرَف من نظام حياتنا في المدينة الجامعية بباريز. وقد كنا نصطحب غير مرة في الذهاب إلى الحي اللاتيني، بقطار الـ (سو)، والإياب منه، إذا توافقت أوقات المحاضرات في الصوربون، ونصطحب بوجه خاص أيام العطل والآحاد، بحثاً عن مطعم غير جامعي، أو مقهىً مناسب لتزجية بعض الوقت، والفوز بقَدَرٍ من الاستجمام، ومحورُ اهتمامنا ينصب على دقائق من موضوع حركة التأليف والنقد العربي بمثل انصبابه على صعاب الفرنسية لغةَ – أداةٍ معرفية في الفلسفة وعلم النفس. بيد أن اهتمام كل منا باختصاصه لم يَحُل البتة دون اهتمامات علمية مشتركة. آية ذلك بعض المحاضرات الجامعية التي كنا نشترك في الاستماع إليها طمعاً في الاستزادة من المعرفة والثقافة والتنوير. ومثلاً محاضراتُ الأستاذ (مورنه) في الأدب والفكر، وبحثُه الرائعُ عن (روسو) و(مونتسكيو) وأمثالِهما. وقد كان يلقيها في بهو المدرَّج الكبير، لشدة ازدحام الحضور... وأحسَب أن لقاء الطالب أمجد بقرينة الغد الطالبة المتميزة لطفاً وأناقة وتهذيباً، أعني الآنسة (مونيك)، إنما نما وترعرع في تلك المحاضرات. وكان لي، ولبعض الزملاء السوريين،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

متعةُ المشاركة في الحفل المقام في ضاحية (انيه ر)، بمناسبة الزفاف... وأشهد أن خصال هذه الأسرة الطيبة كانت رائعة في باريز، وظلت رائعة في دمشق، وفي حي عين الكرش، حيث منزلها الدمشقي، بمثل روعتها الفائقة حيثما قصدت رحاب الشرق والغرب.. تبع الظروف..

* * *

طال أمد الحرب العالمية الثانية. وحفلت تفاصيلها بأحداث جسام، وانقطع اتصال الطلاب السوريين بذويهم.. ولكن مفازع القتال العالمي لم تحجب عنهم واجب النضال لخدمة أمتهم العربية. وكان من ذلك اهتبالُهم فُرصاً عدة أتاحتها صنوف مظاهرات قومية كان إسهام الدكتور أمجد فيها إسهاماً أمثل يتجلى في شعوره الوطنّي المتقد بجاهزية تامة في جميع المناسبات... وما يوم «التعاونية» ببعيد، حيث تكاتف الطلاب العرب، من سوريين ولبنانيين ومصريين.. إلخ مع العمال العرب ولا سيما الأفارقة التونسيين والمغاربة والجزائريين من المقيمين في باريز، لمنع محاضرات صهيونية في قصر (الموتواليته) الشهير، إلى أن اضطرت شَرِطة باريز إلى إيقاف الحفل، وكان لنا ما هَدَفنا إليه..

* * *

وضعت الحرب العالمية أوزارها، وعاد الزوجان طرابلسي مع العائدين، وواكب ذلك بزوغُ فجر الجلاء عن سورية، وبدءُ العمل الجاد في بناء الدولة بمختلف مؤسساتها الوطنية؛ ورَسَم العلاّمة ساطع الحصري خطوط النهضة التعليمية، وأُحدثت في الجامعة السورية كليات جديدة، وفي طليعتها كلية الآداب إلى جانب كلية العلوم، وأُتيح لطلاب هاتين الكليتين اللقاء في إطار مؤسسة جامعية جامعة بجناحيها شمل أساتذة المستقبل من معلمين وموجهين تربويين، فكان من ذلك المعهد العالي للمعلمين، وقد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أوسدت إدارته إلى الأستاذ الدكتور خالد شاتيلا، كما أُوسدت إليه في الوقت ذاته عمادة كلية الآداب.

مضى على هذا المنوال العام الجامعي الأول. وما كاد أن ينتهي حتى نُقل الأستاذ شاتيلا للعمل في وزارة الخارجية سفيراً، فأُسندت عمادة كلية الآداب إلى الدكتور أمجد، وعُهد إلي بإدارة المعهد العالي للمعلمين، وبات من اللازب ضرورةُ إنجاز مناهج الدراسة وخططها في هاتين المؤسستين. وقد أخذ العميد أمجد وصَحبُه بطَرَف كبير من نظام التعليم في الصوربون، وقَبَسنا بوجه خاص مبدأ الشهادات السنوية في إطار الليسانس أو الإجازة، كما متحنا من تفاصيل نظم جامعة عربية مصرية ترجيحاً. ورأيتُ في المعهد العالي الاستئناس خاصة بنظم أمريكية وتكييفَها مع حاجات المجتمع العربي السوري آنذاك. وأحسَب أن سمات تلك المناشط مازالت إلى اليوم بادية للمُمعن كالوشم في ظاهر اليد..

لقد كان عمل الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي في جامعتنا عملاً رائعاً مثمراً خِصباً، تؤيده آثاره العلمية القيمة وإسهاماته الحاذقة الرفيعة في إعداد صفوة من النوابغ النبهاء في مجالات الأدب واللغة والنحو من طبقة زميلنا المجمعي المرحوم الأستاذ أحمد راتب النفاخ، وبمثل مشاركة الدكتور أمجد في أعمال مؤتمر المستشرقين في ميونيخ عام ١٩٥٧، وقد صحِبتُه ممثلَين كلية الآداب والجامعة السورية في جو انفتاحنا العالمي على شؤون البحث وتقدمه في أي مكان.

أشهد، في ختام هذا الجانب من القول، بأن قلب الدكتور أمجد كان، وظلَّ، ولِعاً بالتعليم الجامعي، متعاقبَ الزيارة لقسم اللغة العربية، بعد مغادرته الجامعة للنهوض بمسؤوليات إدارية وسياسية متميزة. وقد لَمَستُ ذلك منه، وزيّنت له مرةً أن يُبقي على صفته الجامعية رسمياً، وهو الوزير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آنئذٍ، فأجابني واثقاً بقوله:مَن جعلني وزيراً يقدر على إرجاعي إلى كلية الآداب. بيد أنه لم يعد أستاذاً هنا. ولكنه أصبح أستاذاً عزيزاً مكرَّماً هناك، في الرباط من المغرب الأقصى. ولا أخالني أغلو إن قلتُ ما قاله هو نفسه واصفاً روح التعليم الجامعي في نظره الثاقب، وحُقّ له:

«السلف، لا ريب، موضعُ احترامنا، وآثارهم موضع اعتزازنا، وويل لأمة لا تطبع أبناءها على هذا الاحترام، ولا تعوّدهم هذا الاعتزاز. ولكن احترامنا السلف يجب أن يكون احترام الأحرار، واعتزازَنا بآثارهم يجب أن يكون اعتزاز الأعزة. فإذا انقلب الاحترام تعفيراً للجباه، أو غدا الاعتزاز جُثواً على الرُكَب، كان الشللُ فالجمود فالموت. وسيكون من حسن حظ حياتنا الفكرية اليوم وغداً أن يسودها ما ساد تاريخنا الفكري بالأمس من إجلال للماضي وللماضين، مع تبصر فيما اعتور الماضي من قوة ووهن، وعلمٍ بما في أقوال الماضي من صواب وخطأ، وأن يدعم كل هذا إيمان متفائل بقدرة الإنسان على أن يتفوق على نفسه في كل لحظة. فهذا هو طريق تقدم البشرية، ولا طريق سواه»[1].

* * *

انفصمت عرى الوحدة السورية المصرية، التجربة المعاصرة الأولى. وقد كان الدكتور أمجد شديد التعلق بها، حامداً آثارها، متغاضياً عن تعثرها، كما كان شغوفاً بشخص الرئيس جمال عبد الناصر، مؤيّداً أفكاره وأعماله. ولما وقع الانفصال، وعاد الدكتور إلى دمشق، سمعته يتحدث بأسى ويقول: كنتُ مع نفر من الزملاء السوريين في حضرة الرئيس عبد

(١) خطاب د. أمجد الطرابلسي في حفل استقباله – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. المجلد (٤٧) الجزء (١) دمشق ١٩٧٢.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الناصر لما حُمل إليه الخبر، فوجم برهة من الدهر، ونحن صامتون من حوله، إلى أن بدا له فأقرَّ الحادث، وحكم بتحاشي سفك الدماء.

* * *

كان الدكتور أمجد يكبرني قليلاً بمثل سبقه أخاه أسعد، زميلي الغالي، وصديق دراستي في مكتب عنبر.

كان أسعد إنساناً متميزاً بخصال رفيعة، وفضائل نادرة. كان شديد التفاؤل، ينظر إلى وقائع الحياة نظرة معمَّر حكيم عاصر الدهر وعجم عوده، وخبر التجارب والمحن، وسما فوقها فهزئ منها ولم تُرهقه جزعاً ولا توجساً. هكذا كان منذ صداقتنا في عنبر. وهكذا وجدتُه بعد أن جُرح وهو ضابط في أولى معارك النضال السوري لقمع العدوان الصهيوني في حدودنا الجنوبية.

عدته للاطمئنان عنه في المشفى العسكري القابع عندئذٍ في ذروة الربوة. كان يعي أن رصاصة العدو كادت أن تقضي عليه لدنوها من قلبه قاب قوسين. وإذا هو يؤكد ضاحكاً بشجاعة الواثق أنه سيعود إلى المعركة فور أن تتاح له فرصة القتال من جديد.

* * *

من هذا الجو الوطني نعرف خاصة البيئة المعنوية التي أنجبت نضال الدكتور أمجد وكفاحَه الجهل والتخلف، وقد رقي بجهاده التعليمي والسياسي إلى مكرُمَة النشاط القومي الصادق، وهو الأديب الشاعر الوزير، المتقدُّ الذكاء، الغزير المعرفة والواسع العلم.

لقد كان أمجد مفعم الشعور بالإباء، نزِقاً ولكن بحصافة؛ سريع الارتكاس، حاسم القول، حازم الفعل، صريح الرأي، مخلص العمل، سبّاقاً إلى الفضل، يحسن تقدير الآخرين، فيتغاضى عن قصور العاجزين، ويتشددُ في ردع الأكفاء القادرين. ذاكم دأبه في حياته الاجتماعية وحياته الرسمية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على نحو سواء. ولستُ أزعَم أن في وسعي الإلمامَ بذكر كل فضله في هذا المقام. وحسبي أن ألمع إلى نبذة من آرائه أقتطفها من كتابه القيّم: «محاضراتٌ عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام»:

لم يشأ الدكتور أمجد استعمال لفظة سورية في هذا العنوان، مرجّحا كلمة الشام لأن لفظة سورية تمثل منطقة مصطنعة الحدود، فرضها الأجنبي. بينما كلمة الشام لها مدلولها الجغرافي الواضح، قديماً، وحديثاً، ولأن أكثر الشعراء في هذه المحاضرات لا ينظرون إلى الحوادث السياسية التي كانت تجري في قطرهم في إطار محلي. بل يَخرجون بها إلى إطارها العربي الرحب. ونحن نراه، فوق ذلك، يضيف عنصر العروبة إلى عنصر الحماسة ويقرِنهما معاً، كما يَحْرِص على إبراز الفكرة القومية والوحدة العربية حيثما يتسع المجال.

لقد أعلمتنا فصول هذا الكتاب الكثير المفيد عن شعر العروبة الحماسي منذ جذورِه البعيدة إلى أيام النهضة الحديثة، والبعث الجديد؛ وأبانت نضال شعرائنا في المعارك القومية، وتمجيدَهم بطولات الأبطال والشهداء، وتنديدَهم بمظالم المستعمرين الطغاة، وتعلقَهم الراسخَ بالوحدة العربية المنشودة، فقرأنا بذلك قصائد (بدوي الجبل)، وأشعار (خير الدين الزركلي) و(شفيق جبري) و(سليمان عيسى) وأمثالِهم، وقد أجاد المؤلف اختيار ما اختار من روائع ذاكم الإبداع، وأتاح لنا قراءة قَبَس من قصيدة (خليل مردم بك) بعنوان: «لوجه الوَحدة»، وقد سخر فيها من الدويلات المصطنعة التي خلقها الأجنبي بتقطيع أوصال بلادنا بالفِتر والبُصَم، وكأنه خياط يُعمِل مِقصه في رقعة من النسيج. يقول الشاعر:

فيم التقاطع، والأرحامُ واشجة ... والدار جامعة، والملتقى أَمم؟
الله في قَطْع أرحام، وفَصم عُرىً ... عهدي بها، وهي وُثْقَى، ليس تنفصم

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بلادُنا، ويد التقسيم تَعلُقها كأنها رقعةٌ ينتابها جَلَم[١]

أكُلُّ حاضرةٍ دارٌ لمملكة أبعادُ ما بينهن الفِتر والبُصَم[٢]

* * *

قالوا: وفي الدين بدٌّ دون وَحْدتنا إلى متى باسم هذا الدين نختصم؟

لئن أصروا على أهواء أنفسهم لا الدينُ يبقى، ولا الدنيا، ولا الشيم

* * *

رحمك الله يا أمجد. لقد وعيتَ الحاضر، وأخلصت للخلاص، وأبلغتَ الرسالة: علّمتَ وعَملت، أنرتَ وأسهمت. ما أمجدَك حياً، وما أعزَّك خالداً.

(١) الجَلَم: المقص.

(٢) البُصم: ما بين طرف الخنصر إلى طرف البنصر.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net